وظيفة التربية في الجزائر بين الأصالة والتجدد.

بقلم د. علي بحري.

قسم الفلسفة، المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة–

إن التربية، في أي جماعة بشرية، قديما وحديثا، لها علاقة مباشرة بمتطلبات الحياة الاجتماعية. إذا عرفت هذه المتطلبات عرفت التربية المرجوة عندها.

إن التربية حاجة اجتماعية ثقافية ضرورية، ولذلك تستجيب للدافع الذي يحركها. فإذا كانت الحاجة العاجلة تحررية، أو إبداعية، كانت التربية، هي السعي إلى تحقيق الحاجات الأولية، وإبقاء غيرها في الانتظار. وهكذا تتمثل التربية في تلبية الحاجات الاجتماعية الدائمة.

وبما أن المحور الثالث في هذا الملتقى، يشير إلى الأصالة أولا ثم التجدد ثانيا. نذكر أن الأصالة AUTHENTICITÉ, ORIGINALITÉ تعني الصدق ويقابلها المنحول APOCRYPHE. أي المزور، أو الكاذب.

وهي عند هايدجر الأفكار والعواطف الصادرة حقا من صاحبها. والجدة والابتداع ORIGINALITÉ، تعني تمايز الشيء أو الفرد عن غيره بصفات صادرة عنه. والأصالة في الإنسان هي إبداعه، وفي الرأي جودته، وفي الأسلوب ابتكاره، وفي النسب عراقته. وهكذا تكون الأصالة، ضد الانحطاط، والابتذال والسخف، فإذا قلد المرء غيره أو عمل شيئا سخيفا أو مبتذلا خرج من دائرة الأصالة. وقد قال باسكال: "كلما كان الإنسان أدق تفكيرا كان الأصلاء في نظره أكثر عددا"[1].

ولهذا السبب، ليس من الأصالة أن يظهر الإنسان في أطوار غريبة، كأن نظهر كثير الافتخار بمخالفة قواعد السلوك الفاضل، والخروج عن النظام الاجتماعي والاعتدال، فالكانسان يكون أقرب إلى الحمق وفقدان العقل هنا.

ونجد من البديهيات الفكرية في هذا الصدد، الرجوع إلى المرجعية الوطنية، والمواثيق الرسمية للجمهورية الجزائرية، حيث نستعرض على سبيل المثال، معنى من الأصالة الجزائرية:

(فالشعب المتحصن بقيمه الروحية الراسخة، والمحافظ على تقاليده في التضامن والعدل، واثق في قدرته على المساهمة في التقدم الثقافي، والاجتماعي، والاقتصادي، في عالم اليوم والغد[2]).

إن الأصالة التي يدعو إليها دستور 1996، هي:

- الشعب الجزائري. (جوهره).
- القيم الروحية. (دينه).
- المحافظة على التقاليد. (أخلاقه).
- التضامن.
- العدل.
- قدراته في:
- التقدم الثقافي.
- التقدم الاجتماعي.
- التقدم الاقتصادي.
- وهذا برنامج مستمر تسعى التربية الجزائرية إلى إنجازه.

ويضيف إلى عناصر الأصالة قوله: (إن الجزائر أرض الإسلام، وجزء لا يتجزأ من المغرب العربي، وأرض عربية، وبلاد متوسطية وإفريقية، تعتز بإشعاع ثورتها، ثورة أول نوفمبر. ويشرفها الاحترام الذي أحرزته، وعرفت كيف تحافظ عليه بالتزامها إزاء كل القضايا العادلة في العالم [3]).

ففي اللغة الفرنسية التربية هي: EDUCATION وفي اللغة الإنجليزية نجد مصطلحين: EDUCATION –CULTURE وسنعود إلى مقارنة المصطلحين فيما بعد. ونود هنا أن نشير إلى بعض معاني مصطلح التربية، ونذكر منها معنى التبليغ، وهي مساعدة الشيء على بلوغ كماله في الحياة، ونقصد الإنسان هنا.

وفي رأي المحدثين، هي تنمية القدرات النفسية بالتدريب إلى أن تصل إلى كمالها المطلوب شيئا فشيئا، ولذلك يقال: ربّيت الولد، إذا ساعدته على تقوية ملكاته، ونميت قدراته، وهذّبت سلوكه، حتى يصبح صالحا للحياة في بيئته الخاصة. ربيت تعني نمّيت من النماء

والنمو. والأصالة تقتضي تربية الطفل حسب البيئة التي تحتضنه وإعداده وتكوينه تكوينا يوافق البيئة التي يعيش فيها.

شروط التربية الصحيحة:

أصبحت التربية في عصرنا، ميدانا تتدرب فيه القوة العقلية على الإبداع، وعلى بذل أقصى درجات الجهد الفكري المستمر. وبناء على الهدف من التربية، تنقسم إلى نوعين:

1- تربية تتجه إلى تنمية القدرات الفكرية. وهذا هو أصل الكلمة.

2- تربية تتجه إلى نتيجة الفكر من أجل تلقينها للطفل.

إن التربية الصحيحة تبدأ بتنمية شخصية الطفل من جميع النواحي: الجسمية، والعقلية، والخلقية، لكي يكون قادرا على التكيف ADAPTATION وحسن الاتفاق مع الطبيعة، ومع العوامل التي تؤثر فيه، حيث يتجاوز ذاته، ويحقق سعادة نفسه وسعادة مجتمعه.

وهكذا تصبح التربية ظاهرة اجتماعية، تتحكم فيها قوانين الظواهر الاجتماعية في النمو والتطور[4].

وهنا تظهر العلاقة بين التربية والوراثة البيولوجية، ولكن التربية تتصف بالتغيّر والتمايز، في حين تختلف الوراثة عن التربية في ماهية الثبات والاستقرار.

إن الكائن الحي قابل للتغيّر بتأثير غيره وبموافقة الظروف المحيطة به أيضا، بفضل ما تقدمه التربية. أما الاتصاف بخصائص فطرية نوعية، فهذا ناتج عن قوانين الوراثة التي تنقل هذه الخصائص عبر الأجيال المتعاقبة، التي تحافظ على خلق الجماعة الإنسانية.

التربية المباشرة وغير مباشرة:

تكون التربية المباشرة بتربية الطفل نفسه بنفسه. وغير المباشرة تتم بوساطة المربي. فالتربية الأخيرة هي التربية الموجهة في مجتمع ما، تطبيقا لفلسفة، محددة من قبل المجتمع.فإذا كانت تربية مباشرة، كانت نشاطا ذاتيا، يترك الطفل على فطرته، حتى يتعلم من نشاطه القصدي INTENTIONNEL.

وتعرف التربية التي تعتمد النشاط الحر، وتراعي الفروق الفردية للطفل، والملكات الشخصية FACULTÉS PERSONNELS، باسم التربية المتقدمة EDUCATION PROGRESSIVE.

وهذه التربية نتيجة نزعة إصلاحية، مرجعيتها المذاهب النفسية والاجتماعية التي لها علاقة بفلسفة جون ديوي النفعية، أو التجديدية.

ولهذه التربية حضور في الفلسفة الإسلامية، يشير ابن طفيل في كتابه: حي بن يقظان، إلى التربية الطبيعية في قوله: (ونحن هنا كيف نربى، وكيف انتقل في أحواله، حتى بلغ المبلغ العظيم).

ثم يستأنف القول في إشارته قائلا: (فتربى الطفل ونما واعتدى بلبس تلك الظبية).

ويختتم هذه اللفتة بقوله: (فأعلمه حي بن يقظان، أنه لا يدري لنفسه ابتداء، وأبا، ولا أما أكثر من الظبية التي ربته)[5].

والنتيجة المستخلصة من إشارة ابن طفيل، أن الطفل لا يتذكر من عمره إلا التربية التي تلقاها من المربي L'INFLUENCE DE L'EDUCATEUR.

إن الغاية من التربية، في الجزائر، هي تنمية الفكر للفرد الجزائري.

والسؤال المطروح: هل تعمل التربية على إحياء الأصالة الجزائرية من أجل تحقيق هذا الهدف، وهي عملية هادفة يستلزم نجاحها تحقيق هذا الهدف، أم هي خالية من كل ذاتية أو غاية؟.باعتبارها تصبح مقيدة بالمفهوم الوظيفي الآلي. يصعب تصور تربية خالية من الغرض، باعتبار موضوع التربية هو الإنسان الحقيقي، الذي هو بمثابة عالم قيم :VALEURS

1- إن التربية الفكرية هي الفعالية الفكرية هي الفعالية العقلية، والنشاط الفكري ليس مطلوبا لذاته، بل لقيمته، ولما يحققه للفرد والمجتمع من إمكانيات التكيف .POSSIBILITÉS D'ADAPTATION

إنها إنتاج لجميع متطلبات الحياة الحضارية، التي تدفع دائما إلى مزيد من التعقيد. وبناء على ما سبق ذكره، فإن التربية تهدف إلى تنمية الروح الإبداعية لدى الإنسان. ولهذا يجب التفريق بين التربية القديمة، التي تعتمد النقل الشكلي، وتعتقد بثبات المعلومات والحقائق المطلقة VERITÉS ABSOLUES.

في حين يتفق بعض الباحثين، على نسبية الحقيقة، والمعلومات متنوعة ومختلفة، وهي من إبداع الفكر واكتشافه، وليست حكرا على جيل دون غيره، بالإضافة إلى أن الفكر أداة المحاولة في اكتشاف المعلومات والحقائق.

2- تقوم التربية الحديثة على المجهود الذاتي، في حين تقوم القديمة على مجهود الشخص الثاني، وهو ما توصل إليه غيره.

3- تعتمد التربية الحديثة على مبدأ حرية الذكاء، وحرية الإرادة الخيرة، وحرية العمل. بمعنى أنها تلجأ إلى مبدأ الاختيار، حين تتوفر القدرة على الوعي، والوعي ليس مقصودا بذاته، بل وسيلة للإدراك والتمييز، بين ما يحق تفضيله وترجيحه، وبين ما يستلزم تركه، وإذا نمت هذه القدرة الشخصية على الاختيار الصحيح، حضر الإبداع والخلق والتطور المنشود وتحقيق المثل الأعلى الذي يطمح إليه كل جيل باستمرار.

4- تعتمد التربية الحديثة على مبدأ تنمية الجهد الذاتي، ومبدأ الحرية بالوعي، باعتبارها وسيلة الاختيار وسبيله. وهكذا فإنها تركز على الطريقة أكثر من تحقيق النتيجة، وتعتني بالخبرة الشخصية.

التربية والثقافة:

ذكرنا في فترة سابقة، أن اللغة الإنجليزية تستعمل مصطلحين هما: التربية – الثقافة. EDUCATION – CULTURE. ومن الناحية اللغوية يقال: ثقف الرجل ثقافة إذا صار حاذقا أي ماهرا، وثقفت الشيء حذقته، والرجل المثقف هو الحاذق الفاهم الماهر.

وللمصطلح معنى عام: وهو ما يتمتع به الرجل المتعلم الحاذق الفاهم من ملكات، وروح نقدية، وحكم صحيح، وهذا هو فضل التربية التي ساعدته على اكتساب هذه القدرات.

المعنى الخاص: تعمل الثقافة على تنمية بعض القدرات العقلية، أو تنظيم بعض الوظائف البدنية، وهذا يكون عن طريق تثقيف العقل، وتثقيف البدن.

ويقال الثقافة العلمية، والثقافة الأدبية، والثقافة الرياضية، والثقافة الفلسفية.

وتأكيدا للعلاقات بين التربية والثقافة، نذكر قول روستان: (العلم شرط ضروري في الثقافة و لكنه ليس شرطا كافيا، إنما يطلق لفظ الثقافة على المزايا العقلية الذي أكسبنا إياها العلم، حتى جعل أحكامنا صادقة و عواطفنا مهذبة[6]).

والمعنى العام: يجعل الثقافة شرطا للاتفاق الصحيح بين الإنسان والطبيعة، وبينه وبين المجتمع، وبينه وبين القيم الروحية، والإنسانية.

ويدل لفظ الثقافة CULTURE في بعض اللغات على معنى الحضارة CIVILISATION كاللغة الألمانية حيث تخصصه في:

1- الطابع الذاتي: وتعني به تثقيف العقل. وهي تجديد العقل. ومن أمثلة التجديد في الفكر الإسلامي، نجد رأي الشاعر الفيلسوف محمد إقبال في كتابه: (التجديد في الفكر الإسلامي).

ملخصه: إن محمد صلى الله عليه وسلم، كان حتما أن يكون خاتم الأنبياء، وحتما أن تكون رسالته آخر الرسالات، لأنه جاء يدعو إلى تحكيم (العقل) فيما يعترض الناس من مشكلات."والعقل وكيل الله عند الإنسان[7]".

((و إنما سمي العقل عقلا، لأنه يلزم اللسان... عن أن يمضي فرطا في سبيل الجهل، والخطأ والمضرة، كما يعقل البعير[8])).

2- الطابع الموضوعي: يتضمن العادات والأوضاع الاجتماعية، والآثار الفكرية والأساليب الفنية والأدبية، والطرق العلمية والتقنية، وأنماط التفكير، والإحساس، والقيم السائدة في مجتمع ما. وبعبارة موجزة، هو طريقة حياة المجتمع الإنساني، وكل ما يملكونه ويستعملونه اجتماعيا وليس بيولوجيا[9].

والأصح أن تطلق الحضارة على نماذج التقدم العقلي فقط. ولهذا يقال الثقافة الشرقية والثقافة الغربية، والثقافة الكلاسيكية، والثقافة الحديثة، والتخلف الثقافي.

والحضارة عند ابن خلدون هي الإقامة في الحضر، أي المدن، خلاف البداوة، أي الإقامة في البوادي. واعتبر أجيال البدو والحضر طبيعية في الوجود الإنساني. والحضارة هي التقدم الأدبي، والفني، والعلمي، والتقني، التي يتناقلها جيل عن جيل في المجتمع البشري.

ورغم اختلاف الحضارات، إلا أننا نجد أسماء الحضارة العربية، والحضارة الصينية، والحضارة الغربية. وتعني الحضارة بلوغ درجة عالية في سلم التطور العقلي، أي الخروج من مرحلة التوحش والهمجية، فتتجاوزها بالتقدم العلمي والتقني، وانتشار الرفاهية المادية، والتنظيم العقلي للمجتمع، والميل للمعاني الروحية، والفضائل الأخلاقية.

التربية الأخلاقية:

نجد في الفرنسية لفظتين MORALE, ETHIQUE.

الأخلاق لغة جمع خلق، والخلق CARACTERE، هو الطبع والعادة، والمروءة والدين RELIGION، إذا وجدت هذه الخصائص في الإنسان استطاع أن يأتي بالأفعال بسهولة دون تفكير وروية، لأنها راسخة في نفسه.

فالخلق أمر ثابت في النفس، منه خلق السخاء، وخلق البخل، ولهذا فرقوا بين الخلق والفعل. قد يكون خلق الإنسان السخاء ولا يبذل المال إما لفقده، أو لمانع. وقد يكون خلقه البخل ويبذل المال لدافع أو رياء، أو حتى يمدح بين الناس.

وقد قسم أرسطو الخلق إلى فضيلة ورذيلة، والفضيلة عنده وسط بين الإفراط والتفريط، وإذا عرفنا القوى النفسية الثلاثة:

العقلية، والشهوانية، والغضبية، تقابلها:

الحكمة، والعفة، والشجاعة.

- الحكمة وسط بين الجهبذة والبلاهة.
- والعفة وسط بين الفجور والجمود.
- والشجاعة وسط بين التهور والجبن.

وإذا وجدت الحكمة والعفة والشجاعة لدى رجل واحد نال فضيلة العدالة. أي أن يكون الرجل عادلا إذا كان حكيما عفيفا شجاعا.

والخلق الكريم في فلسفة الأخلاق، أن يملك الإنسان نفسه، وسلوكه ثابت ومتماسك، ويتمتع بالعزم. وتفسير الآية الكريمة: {وإنك لعلى خلق عظيم.}، والخلق هنا هو العمل بالقرآن من غير تكلف، فإذا وصل الإنسان من قطعه، وعف عمن ظلمه، وأحسن إلى من أساء إليه، كان على خلق عظيم بلا شك.

وهذه هي الأصالة الجزائرية، والتجدد الذي ندعو إليه. والدليل على ذلك أن بعض الجزائريين يكسبون قضاياهم أمام المحاكم، ويعفون عن خصومهم بمجرد النطق بالحكم لصالحهم.!

إذا لا فرق يذكر بين معنى الخلق والأخلاق MORALE، وقد تطلق كلمة الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة عن الإنسان المحمودة والمذمومة. ويقال فلان كريم الأخلاق أو سيء الأخلاق. وإذا ركزت على الأفعال المحمودة سميت أدبا، لأن الأدب يعني الأفعال المحمودة فقط. ويقال أدب المعلمين والمتعلمين، وأدب الكتاب، وأدب العلماء، وأدب الوزراء...الخ. ويطلق الأدب أحيانا، على السنة، أو على الورع، وحفظ النفس من الرذائل. ومصادره عند العرب:

- الشعر الجاهلي
- القرآن الكريم.
- الحديث الشريف.
- السيّر.

والأدب متقدم على علم الأخلاق، لأنه يعتمد على العناصر اليونانية، والفارسية، والهندية[10]، والغربية.

الخلاصة:

إذا استطاعت التربية الأصيلة أن تنمي الفضائل العقلية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية، وأخلاق المروءة والأمانة والصدق والعمل، والتعاون، واحترام المبادئ الإنسانية، كانت تربية محققة لهوية المجتمع الجزائري الأصيل، ومجددة لمميزاته الخاصة.

الهوامش:

[1] - B, PASCAL, PENSEES, PARTIE EDIT BRUNSCH V I C G, N.7, 323.

[2]- دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 1996، ص1.

[3]- دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 1996، ص1.

[4]- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، القاهرة، .1965

[5]- ابن طفيل، حي بن يقظان، طبعة جميل صليبا، ص.132

[6]- ROUSTAN, D, LA CULTURE AU COUR DE LA VIE,

[7]- الجاحظ، رسالة المعاش والمعاد، ج1، رسائل الجاحظ، ص91.

[8]- الجاحظ، رسالة كتمان السر و حفظ اللسان، ج1، رسائل الجاحظ، ص.141

[9]- د.فريد جبرائيل نجار، قاموس التربية وعلم النفس التربوي، بيروت، 1960.

[10]- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1971، ص49.

المصادر والمراجع:

1- B, PASCAL, PENSEES, PARTIE EDIT BRUNSCH V I C G, N.7, 323.

2- دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 1996، ص1.

3- دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 1996، ص1.

4- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، القاهرة، 1965.

5- ابن طفيل، حي بن يقظان، طبعة جميل صليبا، ص132.

6-ROUSTAN, D, LA CULTURE AU COUR DE LA VIE,

7- الجاحظ، رسالة المعاش و المعاد، ج1، رسائل الجاحظ، ص91.

8- الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ج1، رسائل الجاحظ، ص141.

9- د.فريد جبرائيل نجار، قاموس التربية وعلم النفس التربوي، بيروت، 1960.

10- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1971، ص49.